السائح في وطنه

من كتاب "على المسار المطروق "(1999)

لوسي ليبارد

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة المحررين

كتب جون أوري (نظرة السائح ، 1990) ذات مرة أننا جميعًا ، وبشكل متزايد ، نصبح سائحين في حياتنا اليومية . كان يقصد بذلك أننا نسكن ونتفاعل يوميًا بشكل متزايد مع مساحات ومناظر طبيعية ذات طابع خاص . في العديد من هذه المظاهر الطبيعية ، لا نستهلك الطعام والملابس وغيرها من سلع التجزئة فحسب ، بل نستهلك أيضًا تجارب جديدة . ويرجع ذلك جزئيًا إلى أن المستهلكين يميلون إلى إنفاق أموالهم إذا كانت مشترياتهم تحمل بعض التجارب أو المعاني الإضافية . ترتبط بعض المنتجات بقضايا بيئية أو اجتماعية ، مثل إنقاذ الغابات المطيرة أو دعم السكان الأصليين . بينما تُباع بعض المنتجات ببساطة في بيئة ذات طابع خاص : مقهى في غابة مطيرة ، أو مركز تسوق في موقع تراثي كمصنع مُحوّل .

في الواقع ، أصبح التمييز بين مدن الملاهي مثل ديزني لاند ومراكز التسوق ذات الطابع الخاص مثل مركز ويست إدمونتون التجاري أو مركز مول أوف أمريكا التجاري يغيب عن أذهان الكثيرين منا . علاوة على ذلك ، غالبًا ما تخضع أحياء وبلدات بأكملها لمشاريع تطوير ذات طابع خاص ، أحيانًا كمواقع تراثية ، وأحيانًا أخرى بناءً على منتج محلي متخصص ، وأحيانًا أخرى دون سبب واضح ، باستثناء جذب انتباه الغرباء . في شنغهاي ، بُنيت مشاريع سكنية جديدة تنتشر حول المدينة وفقًا لمجموعة متنوعة من المواضيع . فهناك "مدينة التايمز" ذات طابع قرية ريفية إنجليزية ، إلى جانب مدن أخرى ذات طابع "كندي" و"صيني تقليدي" و"سويدي" و"ألماني" و"إيطالي" و"إسباني" . يمكن العثور على مثل هذه المشاريع العقارية ذات الطابع الخاص أيضًا في اليابان والعديد من الأماكن الأخرى حول العالم .

ولكن هناك ما هو أكثر من ذلك بكثير في كونك "سائحًا في منزلك" . سعى أوري إلى توضيح وجهة نظره حول تغير ممارسات الاستهلاك ، وحول الطريقة التي تنتج بها الرأسمالية ما بعد الصناعة بشكل متزايد صورًا وتجارب للبيع ، بدلاً من مجرد منتجات . كان ادعاؤه بأن يكون سائحًا كل يوم ادعاءً حول الطبيعة المتغيرة للمجتمع . في المختارات أدناه ، تتخذ الناقدة الثقافية النسوية لوسي ليبارد منظورًا مختلفًا نوعًا ما حول "السائح في وطنه" . فبينما تتفق بالتأكيد مع أوري في أن تجربتنا في الحياة اليومية تتوسطها بشكل متزايد المظاهر الطبيعية الخلابة ، والصور الإعلانية ، والموضوعات المصطنعة ، فإنها تتفق أيضًا مع سيميل في أن هناك نوعًا من "الموضوعية" التي يمكن اكتسابها من خلال النظر إلى مكان ما من خلال عيون "غريب" .

بالنسبة لأوري ، يُعد المرء سائحًا في وطنه لأن الرأسمالية ما بعد الصناعة جعلت من المستحيل بشكل متزايد عدم الوجود . يقول مازحًا : "نحن سائحون ، سواء أردنا ذلك أم لا" . بالنسبة لليبارد ، فإن كون المرء سائحًا في وطنه ينطوي على جهد واعٍ "للاعتناء" بمكانه ، والخروج من روتين الحياة اليومية المُسلّم به ورؤية المكان من جديد . وتجادل قائلةً : "السفر هو السياق الوحيد الذي ينظر فيه بعض الناس حولهم" . لو أنفقنا نصف طاقتنا في دراسة أحيائنا السكنية ، لربما تعلمنا ضعف ما تعلمناه . تشير ليبارد إلى الدور المهم الذي يلعبه الفنانون والمؤدين المحليون في مساعدة السكان على تحقيق هذه النظرة الغريبة ،

ومقالها يصف بعض المشاريع التي ابتكرها الفنانون لهذا الغرض . ومن أبرز هذه المجموعات (وإن لم يُذكر في مقال ليبارد) مجموعة رايتس آند سايتس ، في إكستر ، إنجلترا . وقد أصدروا "دليلًا" للسياحة في الوطن : دليل إكستر الخاطئ (2003) ، ومنذ ذلك الحين وسّعوا نطاق مشروعهم ليشمل فكرة أوسع بكثير عن "الوطن" في "دليل خاطئ إلى أي مكان" (2006) .

في كثير من الحالات ، تشجع هذه المشاريع "السياح" على مواجهة الجوانب الخفية لمنازلهم ، المهمّشين ، و"الخطرين" . قد تُؤدي هذه اللقاءات إلى اهتمام الناس بشكل أفضل بمنازلهم وبالأنواع المختلفة من الناس الذين يعيشون فيها . إن رؤية منازلنا من خلال عيون شخص غريب تُذكّرنا أيضًا بفكرة سيميل الأساسية . يُذكّرنا "الغريب" بأن العلاقات والتفاعلات بين الناس التي تدخل في بناء منزل / مكان هي تعبيرات عن ثنائية الذات / الآخر التي من خلالها نخلق عالمنا . نسكن منازلنا كأشخاص من الداخل والخارج ؛ نعرف شركائنا الأقرب إلينا كغرباء وعشاق . أن تكون سائحًا في وطنك يعني إذًا تذكيرًا لنفسك بهذه الثنائية ، وفهمًا **أن التنقل والسكن هما ما يخلقان مكانًا** .

كتبت لوسي ليبارد عن الفن والسياسة والنسوية والمكان منذ ستينيات القرن الماضي . ولعل أشهر كتبها بين الجغرافيين هو كتاب "الإغراء المحلي" (1997) ، الذي استكشف من زوايا متعددة العلاقة بين الفن وصنع المكان . أما كتاب "على المسار المطروق" (1999) ، فهو استكشاف موسع لتلك العلاقة في سياق السياحة . تزعم ليبارد أن "الأمر يتعلق بالبقاء في المنزل أكثر من السفر" . في تركيزها على "مدى تنقل الناس في محاولة للعثور على مكانهم" ، يُحاكي كتاب ليبارد الرجال المشردين في دراسة جون ماي . تشمل الأعمال الحديثة في الجغرافيا ، والتي تتناول العلاقة بين الوطن والسفر، والمكان والتنقل ، مجموعات مينكا وأوكس ، "سفر في مفارقة : إعادة رسم خريطة السياحة" (2006) ، و"إغراءات المكان" لكارتييه ولو (2005) ، و"السياحة : بين المكان والأداء" لكرانج وكولمان (2002).

هذه القرية تعشقها لأن ضفاف أنهارها مليئة بالإغوانا التي تتشمس ، وأسماكها تعشق العض . (سانتياغو تشوب) "ماذا يوجد هنا ؟" سألني بعض الأصدقاء من ولاية مين بينما كنت أسير معهم في قرية نيو مكسيكو التي أعيش فيها . رأوا المكان مكتوبًا في دليل سياحي على أنه "خلاب" . "لا شيء" ، قلتُ بلهفة كاذبة ، وأنا أفكر في مدى غموض سطح القرية . "هل يوجد أي شيء هناك ؟" سأل زوجان التقيتهما على الجسر ؛ كانا يقيمان في نُزُل محلي . "يعتمد الأمر على ما تبحث عنه" ، أجبتُ ، مطمئنًا إلى أنه لا يوجد شيء هناك قد يرونه .

ومع ذلك ، عندما أقوم بجولاتي سيرًا على الأقدام عبر الشوارع الترابية الوعرة (وقليل من زواري يفلتون منها) ، يبدو لي أن كل شيء موجود هنا : الثقافة ، والطبيعة ، والتاريخ ، والفن ، والطعام ، والتقدم ، والسخرية . هناك القرية القديمة نفسها ومزاعمها الأثرية بـ"أصالتها" ؛ والكنيسة (جديدة نسبيًا ككنائس الجنوب الغربي ، إذ حلت محل كنيسة قديمة عام ١٨٨٤) ؛ والبناء الراقي الذي يعود تاريخه إلى ثمانية عشر عامًا إلى الغرب للتباين (وللقيام بجولة معمارية ذات طبيعة مختلفة ؛ إنها نظرة جيدة على "أسلوب سانتا فيه" المُتخيل) ؛ وموقع تصوير الفيلم في المسافة ؛ و"مكتب" المعالج الروحاني بجمجمته المعلقة على عمود ؛ وما كان موجودًا هنا وهناك (أطلال طينية متناثرة) ؛ والمركز المجتمعي الجديد تمامًا ومحطة الإطفاء الجديدة تمامًا (التي بُنيت جزئيًا من قِبل فرق العمل المجتمعية) ؛ والفنون في الفناء ؛ وموقع واسع للنقوش الصخرية ؛ والسحابة التي تُظهر ضوءًا شاملًا على أراضي المزارع والجبال ؛ والتنوع البيولوجي (المتناقص) للخور والبستان ؛ والتماثيل الشهية في تيندا أنايا ؛ وبالطبع ، الناس . لدينا كل شيء ، ولكن من الصعب على من لا يعرفه أن يجده .

السؤال الاتي هو: هل ينبغي أن يكون الأمر أسهل ؟ ما الفائدة لمدينة كهذه ، مع قلة الشركات المحلية ؟ من سيستفيد من مكانة مرموقة ؟ هل ستبدأ اللافتات بالانتشار على طول الطريق السريع ؟ هل سيساهم الفنانون المحليون في جعل هذا المكان "وجهة سياحية" بدلاً من مجرد ممر عابر؟ هل سيغير مقهى / معرض و/أو مطعم مقترح هويتنا ؟ قد نضطر قريبًا إلى الإجابة عن هذه الأسئلة ، حيث تبحث مكاتب السياحة في الولاية والمقاطعة أكثر فأكثر عن "أصالة" جذابة . قال دين ماكانيل إن مفهوم "الأصالة" هو "مدخل محتمل إلى قلب الثقافات المحلية".

يُعرَّف المحلي بنظرائه غير المألوفين

يوجد توتر غريب بين ما هو حولنا وما هو خارجنا ، وبين ما هو إقليمي و وطني ، وبين الوطن ومنازل الآخرين ، وبين الحاضر والماضي ، وبين الغرباء والداخليين . هذا التوتر مألوف بشكل خاص في مجتمع متعدد المراكز مثل مجتمعنا ، حيث وصل الكثير منا مؤخرًا نسبيًا إلى الأماكن التي نسميها موطنًا ، ولديهم مسؤولية مختلفة (وإن لم تكن أقل) تجاه أماكنهم عن أولئك الذين يعيشون في المنطقة منذ أجيال . وقد علّقت جودي بورلاند على "التبادلية الغريبة للشوق" في قلب السياحة التي تربط الغرباء بالداخليين . قد يتوق السياح إلى الدفء والجمال والغرابة ، بينما قد يتوق السكان المحليون إلى الهروب والتقدم واقتصاد أفضل : "قد تكون بيننا لحظة من الفهم الغريب ، وربما المضلل" . يمتلك السكان المحليون ويصبحون "موردًا طبيعيًا ينتج المزيد من المتعة ، والسياح ضروريون لتحويله إلى ثروة" . الابتسامات والاهتمام جزءٌ من المفاوضات . ينطوي هذا التبادل على التناقضات التي تُعرّف مجتمعًا متعدد المراكز.

السياحة هي ذروة التأمل ، وهي أساس الفنون الإقليمية ، وكيف نعرف أين نحن . السفر هو السياق الوحيد الذي ينظر فيه بعض الناس حولهم . لو أننا أنفقنا نصف طاقتنا في التأمل في أحيائنا ، لربما تعلمنا ضعف ما تعلمناه . عندما نكون سياحًا في أماكن أخرى نشاهد المعالم السياحية ، كم مرة نتوقف ونتساءل : من اختار المعالم التي نراها وكيف بُنيت لنا ؟ غالبًا ما نتساءل عن المعالم التي لا نراها - المنازل والحدائق التي نلمحها خلف الجدران ، والمواقع التاريخية والعجائب الطبيعية - المعزولة في ممتلكات خاصة أو المغلقة أيام الثلاثاء .

التجربة السياحية هي نوع من الفن إذا كانت ، كما يقول ألكسندر ويلسون ، طريقتها الخاصة في تنظيم المشهد الطبيعي وإحساسنا به . نجوب أسطح الحياة اليومية المتباينة كوسيلة لإعادة دمج عالم مجزأ . إنه شكل فني يُمارس على أفضل وجه محليًا ، ويتحدى الفنانين للعمل في الفجوات بين المشهد الفني والجمهور المحلي . قد يعني هذا نزع الأساطير المحلية وبناء أساطير مضادة تُسلح السكان ضد أولئك الذين يُغيرون أماكنهم بطرق تُناقض المعنى المحلي (وهو في حد ذاته غير مستقر) . لذا ، فإن المقيم الذي يقبل دور السائح في وطنه يصبح مسؤولاً ليس فقط عن طريقة رؤية المكان ، بل عن كيفية استخدامه أيضًا . يُشير جيم كينت ، عالم الاجتماع المقيم في مدينة التزلج الأسطورية في كولورادو، إلى أن "الكثير من الناس يشتكون من مَن اشتروا أسبن . ماذا عن مَن باعوا أسبن ؟" . إن التواجد هنا والتواجد هناك ، والتواجد في الوطن والتواجد بعيدًا عنه ، أكثر تشابهًا مما نعتقد غالبًا . حتى مع تعلمنا إياها ، تتغير أماكننا ، **لأنه لا يوجد مكان ثابت ، ولا ساكن يبقى على حاله كما يعيش ، ويتغير مع التجارب التي توفرها الحياة والمكان** .

يزور الناس المكان ، ويحبونه ، وينسحبون إليه أو يتقاعدون فيه ، ليصبحوا ما يُسمى "مهاجرين للراحة" . ثم ، فريسة لـ"متلازمة الجسر المتحرك" ، يبدأون في الشكوى من السياح وغيرهم من الوافدين الجدد . في أسبن ، يقولون : "إذا مكثتَ هنا عامًا ، فأنت تتذكر الأيام الخوالي" . يلاحظ مفوض مقاطعة سابق : "ما يُعرّفك كمواطن محلي ، في رأيي ، هو ما إذا كنت تُعطي أكثر مما تأخذ" . ومع ذلك ، يمكن أن يكون

السكان المحليون آخذين أيضًا ، من عادة إلقاء النفايات التي تنتشر في المناطق الريفية في الولايات المتحدة إلى سلوك مدمر أكثر ديمومة . كان أحد السكان المحليين ، غاضبًا من صديقته ، هو من سمّم وأسقط شجرة تاريخية عظيمة تُسمى "أوستن تريتي بلوط" في تكساس . على شاطئ هيغينز، بالقرب من بورتلاند ، مين ، داس رواد الحفلات السكارى عمدًا على أعشاش وبيض طيور الخرشنة المهددة بالانقراض . وفي جميع أنحاء الغرب الأمريكي ، يُطلق السكان المحليون النار على فنون صخرية قديمة . وقد دمر التخريب ، الذي لم يكن بالضرورة من قِبَل سياح "أجانب" ، قوسًا في كانيونلاندز مؤخرًا . والأمثلة منتشرة في كل مكان بشكل مُرعب

العديد من المدن ليست وجهات سياحية محتملة بقدر ما هي محطات خدمة على طول الطريق إلى أماكن أكثر جاذبية . ورغم أنها تُعد تافهة ، إلا أنها غير مرئية ، تُذكرنا بالسياحة في براءتها ، عندما كان المسافرون غرباء ، يُقدمون الترفيه للسكان المحليين ، عندما كان السياح المارة يطلون على مناظر لم تكن متشابهة قبل مجيئهم وبعد مغادرتهم . ولكن سرعان ما جاء الطوفان . أصبحت معارضة السياحة في الغرب ، ولو نظريًا فقط ، فجأةً "كأنها معارضة لتربية الماشية ، أو المسيحية" ، كما كتب دونالد سنو في مرثية مريرة لولاية مونتانا بعنوان "بيع آخر أفضل مكان :" نشهد الآن امتدادًا لا نهاية له من الفنادق الصغيرة ، ومطاعم الوجبات السريعة ، ومحطات الوقود ذاتية الخدمة على طول الطرق السريعة ، مما يجعل مدننا تبدو كأي مدينة صغيرة دهنية أخرى في كل مكان آخر في أمريكا والت ديزني .

أصبحنا نشهد بشكل متزايد مشاكل تلوث فادحة الآن ، هنا في جنة السهول الشمالية ، وقد تجاوزنا بشكل خطير قدرات الحكومة المحلية على التعامل حتى مع المستويات المتواضعة من تطوير المنازل الجديدة . تشير الأخبار الأخيرة في صحيفة مدينتي إلى أن دراسة هيدرولوجية جديدة لمقاطعة ميسولا وجدت مستويات كبيرة من التلوث بالصرف الصحي في كل بئر... بما في ذلك بئر حُفر على عمق 220 قدمًا حتى الصخر... وإذا لم يكن كل هذا غبيًا بما فيه الكفاية ، فإننا ننفق الأموال الزهيدة التي نجمعها من ضريبة السياحة على المزيد من السياحة .

على مدى سنوات ، درس جون جريجوري بيك وأليس شير ليبي ثلاثة مجتمعات في ولاية كارولينا الشمالية ، ورسما آثار النمو السريع ، والنمو البطيء ، و"التنمية المؤقتة" (تجارة السياحة في عطلات نهاية الأسبوع والمناسبات الخاصة) على ثلاثة معايير ذات أهمية مركزية للسكان المحليين : السلطة (ملكية الأراضي ، ومصادر التمويل ، والمدخلات المحلية ، وعلاقة التقاليد المحلية بمشاريع التنمية) ؛ العائد (الفوائد والارتقاء الاجتماعي المحتمل لعدد السكان) ؛ والمقايضات (التأثير الاجتماعي على المجتمعات) . في أفضل الظروف ، يبدو التوازن ممكنًا . ولكن عندما تصبح السياحة الخيار الوحيد للبقاء الاقتصادي ، تصبح قوتنا العاملة أمة من عمال الخدمات ، مُزينين ليشبهوا أسلافنا بينما نعيد كتابة الماضي لخدمة الحاضر. على الرغم من أن هذا الوضع قد يوفر فرصة للتأمل ، إلا أن الرومانسيين والمُعممين والمُحاكيين عادةً ما يصلون إلى هناك أولاً . يمكن للمدن أن تذبل على كرمتها وهي تُحافظ على ما عفا عليه الزمن بسبب عنادها أو عجزها ، أو يمكنها أن تُثري حياة سكانها الحالية . يمكن استخدام الأماكن والأحداث الماضية لدعم ما يحدث في الحاضر، أو يمكن فصلها عن الحاضر في لا مكان مُبالغ فيه ومثالي ، أو شبه يوتوبيا ، لم تعد ملكًا لمن ينتمون إليه .

في السنوات الأخيرة ، أطلقت العديد من المدن في جميع أنحاء البلاد حملات علاقات عامة بعنوان "**كن سائحًا في مدينتك**" . إنها فكرة مثيرة للاهتمام إذا تجاوزت الدوافع التجارية الصريحة التي تُلهمها . فبدلاً من رحلات مخفضة إلى المطاعم والمتاحف تُقدم لتحفيز الأسواق المحلية ، قد يكون هذا وقتًا للتركيز على الأسئلة الكامنة حول أماكننا - مناطق لم نزرها من قبل ، وأشخاص لم نلتقِ بهم من قبل ، وتاريخ لا نعرفه ،

وقضايا لا نعرفها جيدًا . وبالتالي ، من غير المرجح أن يجد السائح الباحث عن ما هو محلي ، و"أصيل" حقًا ، هذه الأماكن بالصدفة ، لأنها تبدو من الخارج غير مميزة . يرغب معظم السكان المحليين ، وربما حتى بعض مالكي هذه الأماكن ، في الحفاظ عليها على هذا النحو . في المدن السياحية ، على الأقل ، يشعر السكان بالتشرد . إنهم بحاجة إلى ملاذاتهم الخاصة ، والتي دائمًا ما تكون معرضة للخطر - أماكن سياحية محتملة ، إذا انكشف السر. أشار ماكانيل إلى أنه في سان فرانسيسكو ، "كل ما أصبح في النهاية معلمًا سياحيًا لم يبدأ كذلك بالتأكيد . كان هناك وقت كان فيه رصيف الصيادين مجرد رصيف صيادين ، عندما كان الحي الصيني مجرد حي استوطنه الصينيون" .

قبل سنوات ، حصل مبتكر المسرح ريتشارد شيشنر على وظيفة مرشد سياحي لإعداد مقال عن العروض السياحية . شجعت مجلة "كرييتيف تايم" لعام ١٩٩٥، بعنوان "جواز سفر مانهاتن - ٧ جولات رمزية" ، سكان نيويورك على إعادة اكتشاف مدينتهم من خلال "إعادة صياغة المعالم السياحية النموذجية مع مناطق في الجزيرة غير تلك التي قد تعيش وتعمل فيها" . شملت الرحلات السبع ذات العناوين الذكية "استقل القطار" (هارلم) ، و"أكثر من هارلم في ذهني" (واشنطن هايتس وإنوود) ، و"جولة بوتقة الانصهار" (الأمم المتحدة وجزيرة روزفلت) ، و"جولة كورنوكوبيا الثقافية" (الجانب الشرقي السفلي وإيست فيليدج) . توقفت الجولة الأخيرة في مستوطنة شارع هنري ، ومطعم مخللات غاس ، وحدائق ليز كريستي ، وصف المطاعم الهندية في شارع السادس ، ومقهى الشعراء النيوريكاني ، وكنيسة سانت ماركس في باوري ، والحمامات الروسية والتركية ، وأربعة أوكار لليوغا .

هذه هي السياحة الثقافية في أوج نشاطها ، على الرغم من أنه من غير الواضح مدى فعاليتها في معالجة إشكاليات التحديث الحضري ، والتشرد ، والتمييز العنصري ، وغيرها من المشاكل الاجتماعية الملحة المتعلقة بالقضايا الثقافية . من الممارسات المجتمعية المثيرة للاهتمام أن تكون سائحًا في مدننا أن تسأل الناس ما هي المواقع أو المباني المحلية القائمة ، والقطع الأثرية ، والأماكن التي يرغبون في الحفاظ عليها ، ولماذا ؟ ربما لم تكن ساحة تايمز سكوير مدرجة على قائمتي خلال الأربعين عامًا التي عشتها في نيويورك ، ولكن الآن وبعد أن فات الأوان ، أصبحت فجأة على قائمة الجميع .

في وقت مبكر من عام ١٩١٤، وُصفت المنطقة بأنها "جزء من العالم السفلي ، وجزء من نصف العالم - ها هي التركيبة الحديثة لنيويورك كما تتجلى في حي شارع فورتي سيكند" . كانت تُعرض الأفلام الأولى في دور العرض ذات الروائح الكريهة والخطيرة بعض الشيء في شبابي ، والتي اختفت الآن ، كما اختفت دار غرانت ، حيث كان بإمكان سكان نيويورك شراء هوت دوغ والتجول كسياح في الجانب الأكثر قتامة من مدينتهم - ناهيك عن محلات المواد الإباحية البائسة ، والمحتالين من كل نوع ، والأفلام الإباحية التي تُروّج لـ"XXXstasy"، وحياة الشوارع العنيفة أحيانًا . لقد انتهى كل شيء الآن ، وحل محله ديزني ، ليجعل تايمز سكوير ملاذًا آمنًا للفئران ولعنةً للسكان المحليين . ما هو على المحك في تايمز سكوير، وفقًا للباحث الأدبي أندرياس هويسن ، هو "تحويل مكان أسطوري للثقافة الشعبية في عصر تعيد فيه تكتلات الترفيه العالمية اكتشاف قيمة المدينة وملايين السياح فيها لاستراتيجياتها التسويقية" . وأين سيذهب سكان تايمز سكوير المهمشون (الذين جعلوا المكان على ما كان عليه ، للأفضل وللأسوأ) الآن ؟ أينما حلوا ، من غير المرجح أن يحقق مكان جديد العظمة التاريخية والشعبية لسابقه .

أم يمكن إعادة إحياء تايمز سكوير في مكان آخر؟

ربما ستتولى ديزني هذا الأمر أيضًا ، إن لم نفعل نحن . كما يختتم المهندس المعماري مايكل سوركين بحزن : "بالطبع ، من المؤكد أن زوال ساحة تايمز سكوير، وتحويلها إلى نسخة أخرى من لاس فيغاس (التي شيدت الآن ساحة تايمز سكوير خاصة بها ، أكثر بساطةً ونقاءً من "الأصل" المتلاشي) ، يجب أن يُلقى باللوم فيه مباشرةً ، ليس على المدافعين النشطين عن المرح المُعقّم ، بل على إخفاقاتنا في اقتراح فكرة أفضل" .

لطالما احتفى فنانوها وكتابها متعددو الأوجه بمدينة سان فرانسيسكو . في عام ١٩٨٤، نظمت مجموعة من "البانك الناشطين" جولات مسرحية في الشوارع للشركات المتورطة في الطاقة النووية والتدخل العسكري (على غرار جولات "قاعة العار" للشركات النووية في عام ١٩٨١ والتي سبقت "جولات صندوق الحرب" في المؤتمر الديمقراطي عام ١٩٨٤) .

كتب ديفيد سولنيت أن هذه الأحداث مكّنت اليسار الأناركي من "نقل سياساته جماعيًا من العروض غير الرسمية إلى الأماكن العامة" . بعد أربعة عشر عامًا ، أشادت شقيقته ريبيكا سولنيت بضخامة سان فرانسيسكو وحياة شوارعها ، التي "ما تزال **<u>تجسد الفكرة القوية للمدينة كمكان للقاءات غير مباشرة</u>"** ، على عكس المدن الغربية الأخرى التي "هي مجرد ضواحي متوسعة ، خاضعة لرقابة صارمة ومعزولة" .

استضافت المدينة العديد من جولات الفنانين ، مثل جولة جو هانسون التي كلفت 5 دولارات لـ"مواقع غير قانونية" في أوائل الثمانينيات . وكونها جزءًا من "الفن الذي يجتاح المدينة" ، أشرف نشطاء مجتمعيون على الجولات البيئية إلى عشرة مواقع ، مستكشفين "المدينة الحية تحت معالمها السياحية... مع التركيز على شبكة القضايا / العلاقات الحضرية من خلال القمامة وإلقاء النفايات" . شملت المواقع المختارة الحي الصيني ("حيث سترى أزقة وأسواقًا أكثر من المتاجر السياحية") ، و"باي فيو ونقطة هانترز، و"ظل حديقة كاندلستيك" ، و"المجتمعات السوداء الفريدة التي تتعرض للظلم من خلال الإغراق غير القانوني للنفايات من الخارج" ، و"شاطئ المحيط ودماره" ، و"توين بيكس ، المنظر الرائع الأخّاذ الذي تتناثر فيه القمامة على منحدراته الشديدة" .

في عام ١٩٩٤، قاد الفنان بيرني لوبيل والكاتبان / الأستاذان / الناشطان / الفنانان دين ماكانيل وجولييت فلاور ماكانيل جولة حافلة مدروسة بعناية عبر "مواقع غير تقليدية" في سان فرانسيسكو . قبل أن يبدأوا ، طلبوا من ركابهم رسم "استعارات للمدينة" ، وتوزيع دفاتر فارغة ، وبطاقة بريدية فارغة ، و ورقة "كلمات إيحائية" . كانوا يأملون في إعادة <u>ربط "البحث السياحي بالرغبة الإنسانية الجوهرية في رؤية ومعرفة شيء آخر</u> ، ومقاومة الأشكال التقليدية التي نشأت حول تلك الرغبة ، مُفرطة في التنظيم ومُقضى عليها" . بهدف إنتاج "سردية مشتركة للمدينة" ، كان المرشدون السياحيون مقتنعين بأن "الفراغ وحده قادر على ملء الفراغ بالإمكانات" . انتهى الأمر بالجولة في قصر جوقة الشرف ، حيث كان يُبنى جناح جديد على عجل فوق مقبرة فقراء عمرها قرن من الزمان ، على الرغم من احتجاجات علماء الآثار. بإشراك سياحهم في جدل حالي لم يُحل بعد ، فرض لوبيل وعائلة ماكانيل علاقة وثيقة مع المكان - ومع الموت ، وربما مع الركود المفروض ، وهو السياحة نفسها .

بعد عام ، التقى الفنانون الثلاثة مرة أخرى لمناقشة الجولة ، كاشفين عن بعض دوافعهم الخاصة . كانت "المفاجأة الكبرى" التي فاجأت لوبيل هي مساهمة السياح في الحافلة ، والمعلومات والبيانات التي حصلوا عليها ، الرؤى المُستقاة منهم . رأى دين ماكانيل أن "الجولة نفسها هي المفتاح المفقود : المشاركة المُلحة والمُتعالية والمُلحة لمن تم تجاهلهم" . أرادت جولييت ماكانيل إنهاء الجولة بـ"التيه" ولفت الانتباه إلى الضباب ، "حتى لا يتمكنوا من "الرؤية" بأي معنى مُعتاد" ، بحيث تُصبح سان فرانسيسكو بالنسبة لهم "شيئًا خياليًا

واضحًا" . فالأماكن المُتخيلة ، في نهاية المطاف ، هي إحدى نتائج السياحة التقليدية . في عام ١٩٩٦، رعى مشروع كاب ستريت الأعضاء الأربعة في مجموعة شيكاغو المُسماة "هاها" (ريتشارد هاوس ، ويندي جاكوب ، لوري بالمر، وجون بلوف) الذين تناوبوا على العيش مع أربعة من السكان المحليين ومراقبتهم أثناء حياتهم اليومية . في المعرض ، عرضوا الجولات الصوتية الناتجة عن مواقع المدينة التي تمت زيارتها ، موفرين بذلك انعكاسًا غريبًا يُتاح فيه للمشاهد المحلي الاطلاع على تجارب شخص غريب في مواقع قريبة مألوفة ، والتي تُمثل حرفيًا "ظلالًا" لتجربة حقيقية .

تم تكليف سوزان شوارتزنبرج بكتاب "سينتو : يوميات شارع السوق" من قِبل لجنة سان فرانسيسكو للفنون كجزء من سلسلة تهدف إلى تنشيط منطقة شارع السوق وإلقاء الضوء عليها لمن يمرون بها . يُعد هذا الكتاب الفني المُدمج ، والمليء بالرسوم التوضيحية ، والمؤلف من 116 صفحة ، "دليلًا سياحيًا سيرًا على الأقدام ، ويوميات شخصية ، وخريطة" ، والذي عُرض مجانًا للزوار من يونيو 1996 إلى يناير 1997. عاشت الفنانة في المدينة لنحو عشرين عامًا ، ولا تُحاول تبسيط تجربتها بشكل مُبالغ فيه للاستهلاك السريع . <u>تصف شارع السوق بأنه "ليس مكانًا ، بل سلسلة من الأماكن المترابطة حيث تُعرض جميع أنواع تجارب الحياة"</u> . بعد البحث في مجموعة متنوعة من المرشدين السياحيين والمحفوظات التاريخية ، نزل شوارتزنبرج إلى الشوارع مصطحبًا الكاميرا وجهاز التسجيل ، وأجرى مقابلات مع كل من كان مستعدًا للحديث . "أحيانًا تحدثنا عن سان فرانسيسكو وشارع ماركت ، ولكن في أغلب الأحيان تحدثنا عن العمل والنجاح والفشل - الحياة وما يصاحبها من غموض" .

بتصميمها الجميل ، وحشوها بالصور والاقتباسات والمقابلات وتفاصيل تاريخية غير متوقعة ، تُعدّ مجلة ماركت ستريت فنًا تجريبيًا أكثر منها دليلًا سياحيًا ، ولكن يا لها من مجموعة غنية من المعلومات المتنوعة التي تكتسب أهميتها عندما يكون المكان ذا قيمة كافية لعدد كافٍ من الناس . على سبيل المثال ، الفنادق التي آوت تاريخيًا البحارة التجاريين و كان المهاجرون - الذين يخدمون الآن كبار السن ، والمتنقلين ، والمشردين ، والرجال العزاب (غالبًا من الفلبينيين) - أول من سقط في فخ التدمير. وتنص مشاريع التطوير على أنه سيتم قريبًا بناء فنادق جديدة تستهدف فئة مختلفة تمامًا من الزبائن . ويبدو أن كتاب شوارتزينبرج موجه أكثر للسياح المقيمين منه للقادمين من أماكن أخرى . وبصفته "مجموعة من الأصوات والانطباعات" ، فإنه يُحاكي الشاشة العشوائية للقاءات اليومية بدقة أكبر من الرؤية المنظمة المطلوبة والضرورية إذا أراد السائح العادي فهم التجربة السطحية . في الوقت نفسه ، من المفترض أن يكون هدف السائح هو العودة إلى الكواليس ؛ فإذا نجح ، فمن المرجح أن يقع في فخ "مونتاج شارع السوق" - "سلسلة مربكة من الأحداث واللقاءات التي نحاول فك شفرتها بلا نهاية" .

يقتبس شارتزينبرغ من محقق خاص : "إنه نوع من علم الآثار النفسية . كل شخص يترك آثارًا - إنها مسألة البحث عنها" . ولعل الدليل السياحي الأمثل هو "مفتاح الزائر إلى أيسلندا" ، الذي وصفه الشاعر إليوت واينبرغر بأنه "يتبع كل طريق في البلاد خطوة بخطوة ، كما لو كان المرء يسير مع حارس الذكريات" . لا يوجد في أيسلندا سوى عدد قليل من المباني والمتاحف والمعالم الأثرية البارزة . ما لديها هو التلال والأنهار والصخور، ولكل منها قصة يرويها الكتاب . هنا جسر حجري انهار خلف قاتل مدان هارب ، مما يثبت برائته... رفضت هذه المزرعة إيواء امرأة حامل ، ودُفنت في انهيار أرضي في تلك الليلة... هنا عاش ساعي بريد شهير في القرن الثامن عشر... أي مجتمع حديث آخر يسكن هذا المشهد الذي يعيش فيه ؟ أين ما تزال الطبقة المتوسطة تتذكر ؟

للسياحة آثار طويلة المدى على أماكننا ، نظرًا لارتباطها بالتنمية ، والتي تعود إلى عشرينيات القرن التاسع عشر عندما اتجهت الجولات السياحية العصرية شمالًا من نيويورك ، محوّلةً ساراتوجا سبرينغز، وقناة

إيري ، وشلالات نياجرا . والآن ، وبعد أن **أصبحت السياحة آخر رمق اقتصادى يجب استغلاله** (كما كانت في كثير من الأحيان في منتصف القرن التاسع عشر أيضًا) ، تُعد أكثر الأماكن جاذبيةً للجولات السياحية . إذا لم تكن مدينتك غنيةً بالموارد الطبيعية ، أو إذا كانت حديثةً جدًا أو مسطحةً جدًا أو حديثةً جدًا بحيث لا تثير الاهتمام ، فيجب إنشاء معالم الجذب من الصفر - مدينة ملاهي ، أو مدينة ملاهي ، أو مرسى ، أو منتجع صحي ، أو متحف ، أو مجرد فرصة تسوق واسعة . (من ناحية أخرى ، سمعت) في إحدى البلدات التي علّقت لافتة على أطرافها كُتب عليها : لسنا غريبين .

لا تُعدّ المتنزهات الترفيهية وانتشار أماكن المبيت والإفطار ظاهرتين معزولتين عن ريادة الأعمال الفردية ، فاستغلال الموارد والتنمية السياحية غالبًا ما يترافقان . تُبرّئ الشركات أعمال قطع الأشجار والتعدين السطحي من خلال إخفاء آثارها المدمرة بـ"حدائق عامة" كـ"هدية" لجمهور ساذج ، بينما الحكومة أيضًا لا تتورع عن إخفاء أجنداتها الخاصة . ففي عام ١٩٩٥، على سبيل المثال ، عرضت وزارة السياحة في نيو مكسيكو إعلانات كهوف كارلسباد ، دون ذكر محطة النفايات التجريبية المُعلّقة (WIPP) ، وهي مكب نفايات نووية وطني على وشك الافتتاح في موقع قريب ، مما سيُعرّض للخطر الطرق ذات المناظر الخلابة عبر "أرض السحر" نفسها التي يسلكها السياح للوصول إلى الكهوف . لمن هم على دراية بمشروع WIPP الممول اتحاديًا ، تحمل الرواسب المتوهجة المصورة في الإعلان دلالات خفية غريبة ، إذ تتنبأ بأحد آثار النفايات النووية التي سيتم إلقاؤها هناك .

من الدعاية الترويجية في مطلع القرن العشرين ، حين كان الهدف من الضجيج هو جذب شركات السكك الحديدية والشركات والمستوطنين الدائمين ، إلى عصر الزوال السريع حيث كان المال المُنفق هو المهم ، يمكن تسويق أي مكان وتطويره وتغييره جذريًا في هذه العملية . أما ما إذا كان جميع السكان سيحبون هذا التحول ، فهذه قصة أخرى . قد يتردد البعض في تحويل منازلهم إلى حديقة حيوانات ، ولكن يمكن إقناعهم بوعود الوظائف . يفضل البعض إدارة أعمالهم الخاصة أو زراعة أراضيهم على بناء الطرق وتنظيف المراحيض وترتيب الأسرّة وتوفير خدمة صف السيارات للأثرياء . يُجبر البعض على سلوك الطريق السريع ليس باختيارهم ، بل بسبب الحاجة إلى اللحاق بسوق عمل موسمي بعيد المنال . في هذه العملية ، تصاعدت مخاطر السياحة من الاحتيال إلى القتل .

بالنظر إليها من منظور الأماكن التي "زارتها" ، حتى في المناطق المنكوبة التي تضررت من تقليص الحجم وتراجع التصنيع الذي تفاقم بفعل اتفاقية التجارة الحرة لأميركا الشمالية (نافتا) واتفاقية الجات (الغات) ، **تُعد السياحة نعمة ونقمة في آن واحد - أحيانًا إيجابية اقتصاديًا ، وعادةً سلبية ثقافيًا ، ودائمًا ما تُستنزف الموارد** (كما هو مُقاس بأرقام "التدفق الهزيل" التي يُصبح فيها استخدام المراحيض مؤشرًا على النجاح في مدن المنتجعات الصيفية وعطلات نهاية الأسبوع) . تؤدي السياحة إلى قدوم سياح صيفيين ، وتؤدي إلى قدوم وافدين جدد على مدار العام ، وتؤدي إلى نزع الملكية ونوع من الاستعمار الداخلي . ومع "فتح" مساحات متزايدة من العالم ، يتزايد البحث عن "الطبيعة البكر" ، مما يُعرّض أكثر الأماكن صعوبةً للمرافق التجارية والأعمال الوحشية ، من التخريب إلى الدراجات المائية . يأتي السياح إلى الغرب الأمريكي ، على سبيل المثال ، باحثين عن أماكن دمرتها التغيرات الاقتصادية : آثار الهنود الحمر، ومدن الأشباح ، والمزارع المهجورة ، والمناجم المهجورة ، ومساحات القرن التاسع عشر المتجمدة في البراري التي تديرها الحكومة . لسنوات ، ولّد أوريغون وكولورادو، وغيرهما من الولايات التي يميل سياحها إلى العودة والإقامة ، "شوفينية" على ملصقات السيارات : مرحبًا بكم في أوريغون ، عودوا إلى دياركم الآن ، أو، بوحشية أكبر، أطلقوا النار عليهم عند الحدود .

كُتب على قميص شعبي من كيب كود : "أخدع السكارى والسياح" . في ولاية مين ، وضع بعض "السكان الأصليين" لافتات في الطرف الجنوبي من الطريق السريع : "في المرة القادمة ، أرسل المال فقط"، وقد أنفقت الولاية مبالغ طائلة على حملات تتوسل إلى السكان المحليين ليكونوا لطفاء مع السياح . أحد دوافع ذلك هو **الإقليمية القديمة** . قد يكون لدى هؤلاء السياح في الوطن مواقف مماثلة تجاه سكان مين الذين يغزون أرضهم . أحيانًا نكون سياحًا ، وأحيانًا نُجَوِّل . حتى أولئك الذين يكرهون السفر، حتى أولئك الذين يعيشون في أماكن نائية ، قد تعرّضوا للسياح إما مرورًا أو كمشهد . وبينما نعيش ما نعده حياة عادية ، فإننا تحت المراقبة - إن لم يكن من قِبل الحكومة ، فمن قِبل المواطنين .

أتذكر كم شعرت بالدهشة عندما التقط صورتي بعض السياح اليابانيين وهم ينزلون من حافلة وأنا أغسل ملابسي في سوهو . كنت أشعثًا وهادفًا في بنطالي الجينز الأسود ، ومن الواضح أنني كنت من السكان الأصليين . التغيير أمر طبيعي ، مع أنني كسائح أميل إلى النظرات الجانبية أكثر من التحديق والعدسات . في مانهاتن السفلى ، السياح مجرد مصدر إزعاج . لكن في "الوجهات" الأكثر فقرًا ، يكون الانقسام أكبر بكثير ، كما كتبت جامايكا كينكيد : ليس من الصعب تفسير أن المواطن الأصلي لا يحب السائح... كل مواطن أصلي يرغب في إيجاد مخرج ، كل مواطن أصلي يرغب في الراحة ، كل مواطن أصلي يرغب في جولة سياحية . لكن بعض المواطنين الأصليين - معظم المواطنين الأصليين في العالم - لا يستطيعون الذهاب إلى أي مكان . إنهم فقراء للغاية . إنهم فقراء للغاية بحيث لا يستطيعون الذهاب إلى أي مكان . إنهم فقراء للغاية بحيث لا يستطيعون الهروب من واقع حياتهم ؛ وهم فقراء للغاية بحيث لا يستطيعون العيش بشكل لائق في المكان الذي يعيشون فيه ، وهو المكان الذي تريد أنت ، أيها السائح ، أن تذهب إليه - لذلك عندما يراك المواطنون ، أيها السائح ، فإنهم... يحسدونك ، ويحسدون قدرتك على ترك سخافتك ومالك ، ويحسدون قدرتك على تحويل سخافتهم ومللهم إلى مصدر متعة لك .

إذا كانت الفوارق المروعة بين الطبقات تُعد أمرًا مسلمًا به ، وتُتجاهل ، وتُنسى في السياحة الحضرية والدولية ("هذا ليس من شأني ؛ لا أستطيع فعل أي شيء حيال ذلك : إنها بلادهم") ، فإنها تظل واضحة وضوح الشمس عندما يكون المرء سائحًا في وطنه . يتطلب التعامل مع التناقضات حساسيةً مُصممة بدقة للسياسة المحلية والقوى العالمية التي تُحركها . الأماكن التي تُقدم للسياح على أنها وحدات زائفة تُقسم بعد ذلك إلى آلاف الأجزاء ، حيث لا يُنظر إلى أي مكان بالطريقة نفسها تمامًا من قِبل عدة أشخاص ، ناهيك عن أشخاص من خلفيات ومزاجات واحتياجات مختلفة . كما قال الروائي جون نيكولز عن مسقط رأسه : لجعلها مقبولة للزوار ، تُحنط ثقافتنا الحية في تاوس وتُطهر وتُقدم كصورة مجسمة في متحف : خلابة وآمنة . يفضل السياح ألا يعرفوا أن الحياة هنا ، في كثير من النواحي ، تُقارب الطريقة التي ينجو بها أربعة أخماس سكان العالم ... عندما تقتصر التجارة والتفاعل الاجتماعي على العابرين ، تموت الثقافة والمسؤولية . تُطور المدينة نفسها روحًا عابرة .

من التناقضات الواضحة في السياحة ما يُهرب منه المرء وإليه . فالغياب (أحيانًا) يُزيد من شوق القلب . إذا عشنا بعيدًا عن موطننا الأصلي ثم عدنا إلى الوطن لزيارته ، يُمكننا أن نرى المكان من جديد ، بعيون جديدة . يعود البعض إلى مسقط رأسهم ليجدوا المناجم والمصانع التي هربوا منها تُمجّد الآن كمتاحف . الحكاية الحزينة لمدينة فلينت أوتو وورلد الترفيهية ، وهي مدينة ملاهي تُحاكي الماضي القريب في مدينة فلينت بولاية ميشيغان ، المدينة التي هجرتها الشركات ، رُويت بفكاهة مأساوية كوميدية في فيلم مايكل مور "روجر وأنا" . السياحة الصناعية ، التي لطالما حظيت بشعبية في الدول الاشتراكية ، بدأت تستعيد شعبيتها في الولايات المتحدة . ومن الأمثلة المُلهمة على ذلك إضفاء طابع خاص على تاريخ علاقات العمل المضطربة في لورانس بولاية ماساتشوستس ، وفي لويل ، حيث انتشرت أول حديقة وطنية مُخصصة للصناعة . هل

الزوار مجرد فضوليين ، هواة تاريخ ؟ هل هم من عملوا في المصانع أم يتذكرون تجارب آبائهم وأجدادهم ؟ هل هم يساريون يبحثون عن معالم تمرد ؟

إن الطرق التي تُخفى بها الأماكن وتاريخها ، وتُحجب ، وتُحفظ ، وتُعرض ، وتُدرك تُقدم مقاييس دقيقة للاوعي الاجتماعي . ومع ذلك ، نادرًا ما تظهر علاقاتها بالقضايا الاقتصادية العامة بشكل علني في حياتنا اليومية . نعيش في حالة من الإنكار يُعززها رسميًا إنكار الدولة . هذا التنازل الكبير عن الحاضر لا يُبشر بالخير للمستقبل . لا يسع المرء إلا أن يتساءل كيف ستبدو مدننا الأصلية عندما تزول هذه الموضة . هل ستُطارد أشباح مدن الأشباح المزيفة القرن الحادي والعشرين ؟ أم ستكون أماكننا أشباحًا مُختنقة في أجساد جديدة لن نتعرف عليها أبدًا على أنها موطننا ؟

السياحة خنزير مدهون ، هدف زلق ، مثل نسله - التمدد العمراني . تُصبح التجمعات السكانية الجديدة التي تنشأ حول المواقع السياحية شرًا لا بد منه ، كضمانة مزعومة في حال تراجع الطفرة السياحية . لكن قد يكون مصطلح "السياحة المستدامة" تناقضًا لفظيًا ، على غرار "الاستخبارات العسكرية" . نحن الذين نسكن في المدن والمقاطعات والولايات التي ستُحوّل قريبًا إلى مواقع سياحية ذات قيمة عرضية ، غير مستعدين لهذه التغييرات . لا نستيقظ إلا عندما يفوت الأوان لتوجيهها أو السيطرة عليها . قريبًا ، قد تصطدم جولاتي الخاصة سيرًا على الأقدام في القرى بجولات أخرى أكثر عمومية . قد تكون هناك حتى "معالم" تستحق المشاهدة . قبل قرنين من الزمان ، كتب ويليام بليك : **"لن تعرف أبدًا ما يكفي ، إلا إذا عرفت ما هو أكثر من كافٍ" .**